بين الحداثة والتمرد

العلامة المثيرة في الفن الروسي الحديث

المصدر : (عمران القيسي)

تاريخ النشر: 27/06/2009

نهدي هذه المقالة الأولية عن أبرز العلامات الحداثوية في الفن التشكيلي الروسي إلى اثنين من الروس، اللذين قدما إلى لبنان في ثلاثينات القرن العشرين، وأثرا تأثيراً كبيراً في مسار حركة الفن اللبناني الحديث، وهُما بوريس نوفيكوف المولود سنة 1888 والمتوفى في بيروت سنة ،1966 ثم أولغا ليمانسكي المولودة سنة 1903 والمتوفية في 1988. وهما الفنانان الروسيان اللذان أوجدا لغة تعبيرية جديدة، أغنت الانطباعية اللبنانية التي اتصفت بمواصفات غنائية مغرقة بالشاعرية.

هذه معاني الحقيقة.. وأدق من ذلك فهم الفهم بإخفاء الوهم قالها الحسين بن منصور الحلاج ، ومن نص هذا المتصوف الذي أعدم قبل ألف ومائة عام، نبدأ بحثاً بريئاً عن العلامة الفارقة والمثيرة في الفن الروسي الحديث، علماً أن الارتباط الوثيق بين الفن الروسي والناس. تحت إطار الشعار الذي رفعه الفنانون الجوالون منذ العام 1870 والذي نادى بفنٍ يخدم الشعب لم يزل تقليداً راسخاً، فلقد كان ذلك التجمع الفني ينتقل من مدينة روسية إلى أخرى، وكل عمل من أعمالهم الفنية كان رصداً لحالات الناس وأوضاعهم، وكان من أبرز هؤلاء (فاسيلي بيروف) 1833-1882 و(إيفان كرامسكوي) 1837- 1887 و(إيليا ريبين 1844- 1930 و(فاسيلي سوريكوف) 1848-1916 و(فالنتين سيروف) 1885-1910 (المصدر مقالة للدكتور الفنان نزار صابور العدد 71 من الحياة التشكيلية سوريا).

لكننا الآن نتحدث عن القرن الحادي والعشرين، عن العديد من المظاهر الإبداعية المذهلة. إذ لا يمكن لأية ظاهرة أن تنبع من العدم، بل لا بد من ممارسة مستمرة ولو بشكل سري أدت إلى تطويرها وانضاجها، وإذا علمنا أن نهر الثقافة الروسي بقي متدفقاً ورافداً أساسيا لكل بحور الثقافة الإنسانية. فإن العديد من النزعات الفنية التي تجذرت في روسيا قبل ثورة اكتوبر البلشفية 1917 وبعد زوالها، قد اتسمت بطابع تسجيلي واقعي لم يكن هو الآخر بعيداً عن أصول التسجيلية والواقعية في الأدب الكلاسيكي الروسي، بل حتى في الأدب الحديث أيضاً وإلا كيف نفهم تلك السردية الإنسانية المعقمة عند (تولستوي) في رائعته الحرب والسلام؟ وكيف نستوعب العمق الإنساني عند أنطوان تشيخوف؟ أو نعترف كما يعترف العالم بأن القصة القصيرة لم تطلع أصلاً إلا من تحت (معطف) القاص (غوغول).

إذن الفن التشكيلي الروسي وأكاديمياته العريقة هو العلامة الأمتن على القوة التعبيرية والبناء الأقدر على استيعاب المتغيرات في الفن تصويراً ونحتاً، ولهذا السبب سنرى أن خروج العديد من الفنانين الروس إلى أوروبا وأمريكاً كان السبب الأول في تأسيس التيارات والمدارس الأكثر ثورية وحداثة، ولا يمكن لأكبر نقاد أوروبا أن ينسى آثار كاندينسكي وكازمير مالفيش.

أما داخل روسيا، ذلك الكنز المغلق، فإن محترفات الفنانين كانت تحتوي على المدهش والجديد، حتى إن بعض الفنانين الروس أمثال سيرجي هاروف كانت أعماله قيد المراقبة النقدية في العالم الغربي وحتى في عالمنا العربي.

إن ثلاثة أسماء ترد الآن كحضور لا بد منه أمامنا نحن الذين سنبحث تباعا في كل هذه الاتجاهات الجديدة، وهي أسماء تستحق أن نتوقف عندها الآن.

قسطنطين خورياكوف

علينا أن نتوقف قليلاً أمام هذه الفنان المولود سنة 1945 في (تساريفيشيان فيلاج) والمتخرج سنة 1971 من معهد موسكو للفن والهندسة، فهو منذ أواخر الثمانينات كان ينتمي إلى تجمع العشرين الموسكوفي الباحث عن هوية أخرى للفن الروسي، والذي يجب أن يتغير بحكم المتغيرات الهائلة التي أصابت النظام والدولة.

لذلك وجد خورياكوف نفسه مضطراً لشق طريقه الخاص به، وهذا الطريق يقوم على قاعدة صعبة أساسها الإنسان ككائن يخترع واقعه الجديد الذي يجب ألا يرتقي إلى مستوى الحلم، إذ ليس نظام الأشياء القائم بمعزل عنا هو القدر الذي علينا أن نسلم به، بل علينا أن نعيش ترتيباً آخر لأي نظام نرتبه نحن، فالإنسان يولد مع نظامه الخاص به، والنظام لا يولد بمعزل عن الإنسان. وهذا الترابط هو المشروعية التي يمتلكها المبدع الذي له الحق في اختراع ما يراه مناسباً من علاقات بين القوى، حتى على مستوى نظامها الفيزيائي الصارم.

إن هذا الفنان طاقة تعرف كيف ترسم بشكل أكاديمي دقيق، وهو طاقة تنبعث من جوهرها عندما يبهرنا بالنتائج النهائية للعمل. وهو لم يخترع رموزاً سوريالية قادمة من عالم الحلم. ولم يستغل الحالة المطاطية للتشريح لكي يموه الشكل وينزع عنه ثوابت الزمان والمكان، بل إن (خورياكوف) رسم الأشكال بجوهر وجودها الواقعي، ووزعها في زوايا غريبة يصعب أن تتوجد فيها، إنها سوريالية التركيب الغرائبي للكون.

إن (فانتازيا) الحضور المغاير للعناصر ليست عالماً مساحته الحلم أو ما وراء الواقع، فالواقع اللا عقلاني يستطيع أن يؤسس أكثر المنظورات غرائبية وغرابة، وإلا كيف يفهم المثقف الروسي اليوم العلاقة بين ما يحصل على مستوى الحياة، وما يحلم به الإنسان هناك

من مستقبل يعيد للإنسان حريته الحقيقية؟

في إحدى لوحاته التي أسماها كرز 1945 يعيدنا إلى فكر ملحمي مسيحي يشبه حالة العشاء الرباني، لكن اليد التي ينبت الكرز من بين أصابعها هي تلك التي حملت به وولدته شتاء ذلك العام؟ لكنه في هذه اللوحة بالذات يستدرك الزمن فيخلط بين حالة التداعي وحالة الانبهار، وربما رموز الخبز وكأس الفودكا هي الاستعاضة المباشرة عن رمز الإقدام ونعني به الخبز والنبيذ.

سيرجي هاروف

من مواليد سنة 1945 في (سفير لوفسك)، تخرج من معهد موسكو للفنون، وتكرس رساماً متمرداً منذ العام ،1967 ولكنه كان مقلاً من حيث المعارض الفردية حتى أتيحت له فرصة العرض في معرض ماركس وانجلز في موسكو سنة 1978 فقامت حول معرضه ضجة نقدية انقسم على أثرها النقاد إلى قسمين، قسم منهم رأى في الأعمال تخريباً ذهنياً، بينما رأى البعض الآخر أن هذه الاعمال الفنية تؤسس لتيار صادم وصعب في الفن الروسي المعاصر.

ولأن هاروف معاند وصعب المراس، أوغل في لوحته الاستفزازية لدرجة أنه صار يضع مختلف المفردات في مواضيع غريبة، حتى لكأنه يريد أن يحاكي المتلقي موضحاً له تلك الجوانب الغامضة والسرية من حياته في الجانب الذي لا يستطيع مواجهته أو تفحصه.

إن السمكلة هي رمز العذاب اليومي للإنسان الروسي الباحث عن معنى لحياته، والأشياء المرمية خارجاً هي حياته الباطنية التي صارت مفتوحة على شتى الاحتمالات، أما قناني الحريق التي تشعل النار ولا تخمدها فهي البضاعة التي يشربها الأناس المدمنون على عذاباتهم اليومية.

تمتاز لوحة هذا الفنان بمتانة البناء الهندسي وقوة التأليف الواقعي، لذلك فهو لا يخترع ألوانه الخاصة به، بل إنه يبعثها من جوهر تكوين الأشكال التي يرسمها لكي يوصلنا إلى أقصى درجات الرعب ونحن نشاهد خطورة ما نعايشه يومياً.

فلاديمير بروفوتوروف

ولد العام 1947 في بوتسدام في ألمانيا الشرقية آنذاك، وتخرج سنة 1972 من (ستراجونوف سكول) وبدأ يرسم ويعرض في روسيا، ولكن اتجاهاته العدمية كانت رهينة محترفة ولم يطلقها إلا مؤخراً عبر معرض شامل أثار دهشة الذين زاروه في موسكو وباريس.

الإنسان عند هذا الفنان هو كائن محشو بالهواء، إنه الصورة التي قال عنها الشاعر الإنجليزي (تي.أس. اليوت) ذات يوم في قصيدته (الرجال الجوف) The Hollow Men - فهذا الإنسان الفارغ حتى من ذاته.. هل هو موقف سلبي أم صيغة سلبية بحاجة إلى إعادة ترميم وتأهيل؟

أم هو الكائن الذي اخترعته آلة الأنظمة لضرورة استمرارها؟ وإلا كيف نقرأ كل هذا الخواء الذي يتلبس الإنسان الروسي حتى في أفياء الديمقراطية التي منحت له؟

إن لوحته الكبيرة التي حملت اسم (حصان طروادة) ليست إشارة إلى صراع بين قوتين إحداهما اقتحامية هجومية والأخرى دفاعية، بل هي إشارة إلى صراع بين قوتين منهكتين محشوتين بالموت. إننا أمام رسام صعب يطرح نموذجاً تعبيرياً لفن غاضب يأتينا من روسيا.. والسؤال هل يشكل تيار الفن الروسي الجديد مدخلاً تعبيرياً ورمزياً يغير من ملامح الفن العالمي في زمن ما بعد الحداثة؟